

تزكية النفوس منهج قرآني نبوي لصناعة الإنسان الرباني



الأحد 19 أبريل 2026 08:00 م

يضع الدكتور علي الصلابي قضية تزكية النفوس في قلب المشروع الإسلامي، باعتبارها مقصدًا عظيمًا من مقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وباعتبارها الطريق الذي يرتقي به الإنسان في عقيدته وأخلاقه وسلوكه حتى يبلغ الفلاح في الدنيا والآخرة [1] ويؤكد أن أهمية التزكية تظهر بوضوح في القسم القرآني المطول في سورة الشمس، حيث ربط الله سبحانه بين فلاح الإنسان وبين تزكية نفسه، وبين خيبتها وبين تدهورها وإفسادها، بما يكشف أن صلاح الباطن ليس أمرًا ثانويًا في الإسلام، بل أصل تقوم عليه حياة المؤمن كلها [2]

ويبين الدكتور علي الصلابي أن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم نفسها ارتبطت بالتزكية ارتباطًا مباشرًا، لأن الرسول الكريم جاء يتلو آيات الله ويزكي الناس ويعلمهم الكتاب والحكمة [3] ومن هنا فإن السيرة النبوية ليست مجرد أحداث تاريخية، بل هي أعظم مدرسة عملية في تطهير النفوس من الشرك والنفاق والمعاصي ومفاسد الأخلاق، وفي بناء الإنسان المؤمن الذي يجمع بين صفاء الروح وصحة الفهم واستقامة السلوك [4]

التزكية غاية قرآنية ومهمة نبوية

يرى الدكتور علي الصلابي أن القرآن الكريم وضع تزكية النفس في منزلة عالية حين قرر بوضوح أن الفلاح الحقيقي من نصيب من زكى نفسه، وأن الخسران من نصيب من أفسدها وأعرقها في الانحراف [5] وهذه الحقيقة تجعل التزكية أساسًا من أسس النجاة، لا بابًا إضافيًا من أبواب الوعد أو التذكير [6]

ويؤكد كذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث لهذه الغاية العظيمة، فقد جمع في دعوته بين تلاوة الآيات والتعليم والتزكية [7] ولذلك فإن كل من يتأمل في سيرته يدرك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قاد أعظم رحلة تربوية شهدها التاريخ، حيث نقل الناس من ظلمات الكفر والفساد إلى نور الإيمان والطهارة والاستقامة [8]

التزكية العقلية وبناء الوعي على اليقين

يؤكد الدكتور علي الصلابي أن المنهج القرآني في تزكية النفوس لم يهمل العقل، بل اعتنى به عناية كبيرة، لأن العقل إذا فسد اضطرب الفهم وانحرف السلوك [9] ومن هنا دعا القرآن إلى تجريد العقل من المسلمات القائمة على الظن والتخمين، ومن التبعية العمياء والتقليد الذي يلغي البصيرة، وربط التفكير بالتحري والتثبت [10]

ويشرح أن القرآن دعا الإنسان إلى التدبر والتأمل في نواميس الكون وفي حكمة ما شرع الله لعباده من عبادات ومعاملات وأخلاق وآداب، لأن هذا التدبر ينضج العقل وينميّه ويجعله أقدر على فهم الشريعة وتطبيقها في الحياة [11] كما أن معرفة حكم التشريع تمنح الإنسان طمأنينة أعمق وتفتح له باب السكينة والسعادة [12]

ويضيف الدكتور علي الصلابي أن القرآن وجه العقل أيضًا إلى النظر في سنة الله في الناس عبر التاريخ البشري، حتى يتأمل الإنسان في أحوال الأمم والشعوب والدول، ويعرف أسباب النهوض وأسباب السقوط، ويتعظ بمصائر السابقين [13] وبهذا يصبح العقل المسلم عقلًا واعيًا يبصر حقائق الحياة ولا يعيش أسير التقليد أو الغفلة [14]

التزكية الروحية وأثرها في تطهير القلب

يبرز الدكتور علي الصلابي أن التزكية الروحية تمثل الشرط الأساسي في إصلاح النفس، لأن القلب إذا امتلأ بعظمة الله استقامت الجوارح وسكن الضمير واطمأنت الروح. ولهذا ربي رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه على تزكية أرواحهم، مسترشداً بالقرآن الكريم الذي دلهم على سبل تطهير الداخل وتثبيت الإيمان.

وفي هذا الإطار يشير إلى أن التدبر في خلق الله ومخلوقاته، والتأمل في كتابه سبحانه، يملأ القلب بعظمة الخالق وحكمته وعلمه الشامل، ويظهر النفس من الشكوك والأمراض. فكلما ازداد العبد معرفة بربه ازداد خشوعه ويقينه وابتعاده عن الاضطراب الداخلي.

ويؤكد كذلك أن عبادة الله عز وجل من أعظم الوسائل التي تسمو بالروح وتطهر النفس. فالعبادات المفروضة مثل الطهارة والصلاة والصيام والزكاة والحج تربي القلب وتعيد ضبط علاقة الإنسان بربه. كما أن العبادة بمعناها الواسع تشمل كل عمل أو ترك يقصد به العبد وجه الله، ما دامت النية خالصة لله سبحانه وتعالى.

ومن المعاني التي توقف عندها الدكتور علي الصلابي عناية المنهج القرآني بتعزيز مركزية الآخرة في نفوس المؤمنين، وذلك بتعظيم شأنها وجعلها الغاية الكبرى والشاغل الأهم للقلوب والعقول. وفي المقابل يربي الإسلام المؤمن على التخفف من التعلق بالدنيا، حتى لا تتحول إلى غاية تطغى على رسالته الإيمانية.

التزكية الجسدية وضبط حاجات الإنسان بالفطرة والشرع

يوضح الدكتور علي الصلابي أن الإسلام لم يهمل جانب الجسد، بل أقام له تربية منضبطة تحقق التوازن وتمنع الإفراط والتفريط. فالنبي صلى الله عليه وسلم ربي أصحابه جسدياً وفق أصول مستمدة من القرآن الكريم، حتى يؤدي الجسد وظيفته التي خلق لها من غير إسراف ولا حرمان ومن غير انحياز لطاقة على حساب أخرى.

ومن أهم ما يذكره في هذا الباب أن الإسلام ضبط حاجة الإنسان إلى الطعام والشراب والملبس والمأوى، حتى لا تتحول هذه الحاجات إلى باب للشهوة المنفلتة أو الترف المفسد. كما ضبط حاجة الإنسان إلى الزواج والأسرة بإباحة النكاح، بل بإيجابه في بعض الأحوال، مع تحريم الزنى والمخادنة واللواط وكل ما يفسد الفطرة ويهدم الأسرة.

ويضيف أن الإسلام نظم كذلك حاجة الإنسان إلى التملك والسيادة، فأباح له المال والعقار والثروات وتولي المناصب الدنيوية، لكن ضمن ضوابط شرعية تحرم السرقة والظلم والعدوان والبغي. وبذلك لا يتحول طلب السلطة أو المال إلى وسيلة فساد، بل يبقى منضبطاً بميزان الحق والعدل.

ويؤكد أيضاً أن الإسلام ضبط حاجة الإنسان إلى العمل والنجاح، فجعل العمل مطلوباً بشرط أن يكون مشروعاً وغير ضار بالناس، وربط بين العمل والإيمان في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، واشترط في العمل أن يكون صالحاً. وهذا الربط يرفع قيمة السعي في الدنيا، لكنه يجعله سعياً مسؤولاً مرتبطاً بطاعة الله وخدمة الناس.

المنهج النبوي في التزكية وصناعة الشخصية الإسلامية

يقرر الدكتور علي الصلابي أن هذا المنهج الدعوي والتربوي العظيم نجح في تزكية الأرواح، وتنوير العقول، والمحافظة على الأجساد، فكانت نتيجته إعداد الشخصية الإسلامية الربانية المتوازنة. وهذه الشخصية لم تكن نموذجاً نظرياً أو صورة متخيلة، بل ظهرت عملياً في رجال ونساء صنعهم القرآن ورباهم النبي صلى الله عليه وسلم.

ولهذا يستحضر الدكتور علي الصلابي نماذج الخلفاء الراشدين والصحابية وفضلاء التابعين وجيل الفاتحين الأوائل والأئمة الأربعة وكبار العلماء والفقهاء والقادة الذين اشتهروا بالعدل والغيرة على الدين والأمة. فهؤلاء جميعاً كانوا ثمرة لهذا المنهج الذي جمع بين الإيمان والعلم والعمل والجهد والخلق الكريم.

وتتجلى أهمية هذا المعنى في أن الأمة لا تستعيد قوتها بكثرة الشعارات، بل بعودة مشروع التزكية إلى مكانه الصحيح في التربية والدعوة والتعليم. لأن الإنسان إذا صلح قلبه واستقام عقله وانضبطت شهواته، صار أقدر على حمل الدين وأداء الأمانة والنهوض بمسؤولياته في الحياة.

خاتمة

يؤكد الدكتور علي الصلابي أن تزكية النفوس ليست بائناً منفصلاً عن العقيدة أو العبادة أو الأخلاق، بل هي الإطار الجامع الذي يصوغ الإنسان المسلم صياغة ربانية متوازنة. فالقرآن الكريم وضع أصول هذه التزكية، والنبي صلى الله عليه وسلم جسدها في دعوته وتربيته، ثم حملها من بعده رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فصاروا قدوة للأمة في العلم والعمل والعدل والإصلاح.

ومن هنا تبقى تزكية النفوس ضرورة دعوية وتربوية وحضارية، لأنها الطريق إلى بناء المسلم الذي يعرف ربه، ويهذب عقله، ويظهر روحه، ويضبط شهواته، ويحسن عمله، ويقوم بواجبه تجاه أمته. وهذا هو الإنسان الذي يصنع النهضة الحقيقية، ويحفظ الدين، ويترك في التاريخ أثراً طيباً لا يزول.